Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 51, No. 1, 2024

Deanship of Scientific Research

Features of Pragmatics Approaches of interpreters in Orienting the Significance of Human to Human Address Forms in Holy Quran

Muhammed Muvaffak Alhasan*

Arabic Language and Literature Program, Sohar University, Sohar, Sultanate of Oman.

Received: 21/7/2022
Revised: 3/1/2023
Accepted: 9/03/2023
Published: 30/1/2024

* *Corresponding author:*
alhasan.moaffak@gmail.com

Citation: Alhasan, M. M. (2024). Features of Pragmatics Approaches of interpreters in Orienting the Significance of Human to Human Address Forms in Holy Quran. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *51*(1), 515–526.
https://doi.org/10.35516/hum.v51i1.1637

© 2024 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: This study aims to clarify the features of the pragmatics approaches that appeared among the exegesis books in directing the significance of the address forms used by humans to humans in the Holy Quran.

Methods: In this study, a sampling of exegesis books spanning a variety of eras and approaches was analyzed using the analytical descriptive approach; in light of pragmatic approaches, particularly the theory of politeness, interpreters' opinions are interpreted in their interpretation of interlocutors' choice of one form over another. The chosen testimonies resulted from the researcher's extrapolation of Quranic passages featuring human-to-human discourse. This selection focused exclusively on instances employing a distinctive deliberative form of address.

Results: The research concluded that, that in most cases the exegesis books refer to the fact that one of the interlocutors has departed from the traditional address formula in favor of a non-traditional address formula, morever, the interpreters' views had been diverse in directing them on the reasons and objectives of the reversal. The researcher pinpointed Quranic verses featuring human-to-human addresses, specifically focusing on unconventional forms of address selected for deliberative purposes.

Conclusions: Some interpreters provided explanatory visions without implying a functional aspect of this reversal in their views to explain the reason for this reversal; others provided functional explanations. Nevertheless, some were more pragmatic adhered to modern pragmatic approaches and saw the use of one address form instead of another as a “pragmatic” choice by the interlocutors to influence the outcome of the conversation.

Keywords: Pragmatics, forms of address, politeness theory, Holy Quran, exegesis books.

ملامح المقاربات التداولية عند علماء التفسير في توجيه دلالة صيغ مخاطبة البشر للبشر في القرآن الكريم

محمد موفق الحسن*

برنامج اللغة العربية وآدابها، كلية التربية والآداب، جامعة صُحار، صُحار، سلطنة عُمان.

ملخّص

الأهداف: هدفت هذه الدراسة إلى استجلاء ملامح المقاربات التداولية التي ظهرت عند علماء التفسير في توجيههم لدلالة صيغ مخاطبة البشر للبشر في القرآن الكريم.

المنهجية: لقد طبق البحث المنهج الوصفي التحليلي على عينة مختارة من كتب التفسير من عصور متعددة ومناهج مختلفة؛ حيث تتبع الآراء التي تبناها المفسرون في تأويلهم لاختيار صيغة مخاطبة دون أخرى من قبل المتحاورين في ضوء المقاربات التداولية، وخاصّة نظرية التهذيب. وقد بني اختيار هذه الشواهد دون غيرها على استقراء قام به الباحث لجميع الشواهد القرآنية التي تضمنت خطابًا من البشر إلى البشر، ثم جرى اختيار هذه العينة دون غيرها لما بدا فيها من استخدام صيغة مخاطبة ذات خصوصية تداولية.

النتائج: خلص البحث إلى أنّ كتب التفسير قد التفتت -في معظم الحالات- إلى حقيقة وجود عُدول عن صيغة المخاطبة الأصلية إلى صيغة مخاطبة أخرى غير تقليدية من قبل أحد المتحاورين، أو كليهما، وقد تعددت آراء المفسرين في توجيههم لأسباب هذا العدول وغاياته. حدّد الباحث مجموعة من الأمثلة من آيات القرآن الكريم تضمنت مخاطبات من البشر للبشر، وقد اشتملت تلك المخاطبات ما بدا أنه صيغ مخاطبة غير تقليدية؛ أي أنها مختارة من قبل المخاطِب اختيارًا وظيفيًا لغايات تداولية.

الخلاصة: بعض كتب التفسير عكست رؤى تفسيرية لم تلمح الجانب الوظيفي في هذا العدول. بينما تبنى بعض المفسّرين، إبّان توجيه دلالة ذلك العدول، استنتاجات تتساوق مع المقاربات التداولية الحديثة؛ إذ لمحوا الجانب الوظيفي في العدول عن صيغة مخاطبة إلى أخرى، ورأوا فيه اختيارًا "تداوليًا" من قِبل المتحاورين يرمي إلى توظيف صيغة المخاطبة المختارة في التأثير في مآلات الحوار.

الكلمات الدالة: صيغ المخاطبة، التداولية، نظرية التهذيب، القرآن الكريم، كتب التفسير.

1. المقدّمة

يمكن تعريف صيغ المخاطبة forms of address بأنها كلمات تُستخدم من قبل المتكلمين لمخاطبة محاوريهم في أثناء تواصلهم معهم (Fasold, 1990). وفي الحقيقة، إن هذه الكلمات المسبوقة بأداة نداء ليست مجرد صيغ للتنبيه وابتداء الحوار؛ وإنما هي أدوات تداولية بامتياز؛ إذ إنها -بوصفها اختيارات لغوية من بين إمكانات عديدة- تعكس الخلفية الاجتماعية واللغوية للمتحاورين بدرجة أكبر من الجوانب الأخرى للغة (Philipsen & Huspek, 1985)؛ حيث إن الناس إبّان انخراطهم في المحادثات اللغوية يظهرون -عن وعي أو عن غير وعي- هويتهم، وانتماءهم إلى ثقافة أو جماعة معينة، وأيضًا ميلهم إلى أن يكونوا قريبين أو بعيدين من الطرف الآخر في الحوار من خلال اختيارهم لصيغة معينة من صيغ المخاطبة دون أخرى. ويتأثر اختيار صيغ المخاطبة في عوامل اجتماعية مثل الجنس، أو العمر، أو المكانة، أو درجة الألفة بين المتحاورين (Brown & Ford, 1961). كما يمكن أنّ تلعب الغايات التداولية دورًا في اختيار صيغة مخاطبة دون أخرى. وتقع دراسة صيغ المخاطبة تحت مظلة قطاعين متداخلين هما علم اللغة الاجتماعي، والتداولية.

وعلم اللغة الاجتماعي هو جزء من اللسانيات تتداخل مجالاته مع مجالات علوم أخرى مثل علم اللغة الإثني، وعلم الاجتماع اللغوي، والجغرافيا اللغوية، وعلم اللهجات (Dubois et al, 1994). وهو يدرس العلاقة بين اللغة والمجتمع، ويهتم بتفسير السبب وراء كوننا نتحدث على نحو مختلف في السياقات الاجتماعية المختلفة، ويركز على تحديد الوظائف الاجتماعية للغة، والطرق التي تُستخدم بها لتوصيل المعنى الاجتماعي؛ إذ إنّ دراسة طريقة استخدام الناس للغة في سياقات اجتماعية مختلفة يقدّم معلومات ثمينة عن طريقة عمل اللغة، وأيضًا عن العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع، بالإضافة إلى الطريقة التي يتبعها الناس في بناء جوانب هويتهم الاجتماعية ونقلها عبر اللغة(Holmes, 2013). يقول واردهوغ: " عندما نتكلم نكون مطالبين باستمرار بأن نقوم باختيارات من أنواع مختلفة: ما نريد قوله، وما هي الطريقة التي نريد قوله بها، بالإضافة إلى التركيز على اختيار أنواع الجمل، والكلمات، وحتى درجة الصوت. فالطريقة التي نقول بها شيئًا ما هي بالقدر نفسه من الأهمية لما نقوله (Wardhaugh, 2006).

وتمثّل صيغ المخاطبة forms of address أحد العناصر اللغوية التي يتجلى فيها بوضوح التأثير المتبادل بين اللغة والمجتمع؛ لذا فإنّ دراستها في إطار علم اللغة الاجتماعي تحظى بأهمية بالغة؛ إذ يمكنها أن تزودنا بمعلومات لغوية-اجتماعية قيّمة حول المتحاورين، وعلاقاتهم، وظروفهم (Zavitri and all, 2018)؛ فهذه الصيغ هي آلية لغوية حاسمة ينعكس من خلالها موقف المتحدث تجاه علاقته بمتحدث آخر وتقييمه له (Brown & Levinson, 1987).

تُعدّ الدراسات التي أجراها كل من براون وغيلمان Brown & Gilman، وبروان وفورد Brown & Ford منذ ستينيات القرن العشرين دراسات مؤسِّسة في حقل دراسة صيغ المخاطبة من وِجهةٍ لغوية-اجتماعية. ففي الدراسة الأولى يركز براون وغيلمان على بعدين أساسيين يؤطران علاقات المتحاورين فيما يتعلق باختيار صيغ المخاطبة: السلطة power، والتضامن solidarity، وفي هذه الدراسة يطبق الباحثان مقولاتهما النظرية على مجموعة من لغات أوربا الغربية التي تتضمن –على مستوى الضمائر- صيغًا متمايزة للتوجه للمخاطب: صيغة التعظيم (vos)، وصيغة الألفة (tu) (Brown & Gilman 1960)، ويخلص الباحثان إلى أن هذه الصيغ هي بقايا ما كان سائدًا في أوربا حتى القرن التاسع عشر حين كان استخدام ضميرين متمايزين لخطاب "الشخص الثاني second person" يعكس الحياة الاجتماعية لتلك الفترات؛ إذ يستخدم أفراد الطبقة الدنيا صيغة التفخيم (vos) عند خطاب أفراد الطبقة العليا، في حين يستخدم أفراد الطبقة العليا صيغة (tu) لمخاطبة أفراد الطبقة الدنيا. كما يلتزم أفراد الطبقة العليا بصيغة (vos) لمخاطبة بعضهم بعضًا، بينما يلتزم أفراد الطبقة الدنيا بصيغة (tu) لمخاطبة بعضهم بعضًا (Brown & Gilman 1960).

أما في الدراسة الثانية؛ فيركز براون وفورد على بعدي "الألفة / االمسافة Intimacy / distance " اللذان تعكسهما صيغ المخاطبة غير الضمائرية أو الاسمية. وقد خلص الباحثان إلى أن الألفة والمسافة بين المتحاورين هما العاملان الرئيسيان اللذان يؤثران في اختيار صيغة الخطاب، وخلصا أيضًا إلى أن عوامل اجتماعية أخرى مثل العمر، والجنس، والمكانة تمثل محددات في حالة عدم المخاطبة بالمثل؛ كأن يخاطب الكبيرُ أو ذو المكانة الصغيرَ باسمه الأول، بينما يحافظ الصغيرُ أو من هو أقل مكانة على استخدام اللقب أو اسم العائلة في خطابه للطرف الآخر (Brown & Ford, 1961).

في ثمانينات القرن العشرين ظهرت نظرية التهذيب Politeness theory على يد بروان وليفينسون كمقاربة جديدة لتحليل استخدام صيغ المخاطبة في اللغة (Brown & Levinson, 1987). ويعدّ موضوع "التهذيب" -كما يقول كولبيبر- واحدًا من القطاعات الأكثر شعبية في التداولية (Culpeper, 2011). ويعرّفه هاوس بأنه ظاهرة اجتماعية ثقافية تنطوي على احترام ومراعاة الطرف الآخر في التفاعل اللغوي أو الحوار؛ فهو سمة من سمات اللغة في أثناء الاستخدام (House, 1998). بينما تُعرّفه لاكوف بأنه: "نظام من العلاقات بين الأشخاص مصمّم لتسهيل التفاعل عن طريق تقليل إمكانية النزاع والمواجهة المتأصلة في كل التفاعل التبادلي البشري" (Lakoff, 1990).

لقد بدأت الدراسات التداولية الحديثة الخاصة بالتهذيب Politeness متأثرة في مبدأ التعاون الذي طرحه الفيلسوف اللغوي بول غرايس الذي ينص على أن المتفاعلين لغويًا "يميلون إلى التعاون بعضهم مع بعض عن طريق اتباع أربعة مقولات: الجودة، والكمية، والملاءمة، والأسلوب" (Grice, 1975). وتدخل استراتيجية التهذيب حيز التطبيق إذا جرى خرق واحد أو أكثر من هذه المقولات؛ فعلى سبيل المثال قد يميل شخص ما إلى أن يكون أكثر إسهابًا من المعتاد حيث ينقل لمحاوره أخبارًا سيئة، وذلك من أجل جعل الآخر يدرك تعاطفه المسبق معه؛ فيكون المتكلم بهذا قد أخلّ بمبدأ الكم بقوله

أكثر مما هو مطلوب. لكن هذا الخرق قد يؤوله المتلقي على أنه لفتةٌ مهذبة من قبل المتكلم. وتسعى البحوث المتعلقة بالتهذيب لدراسة الطرق التفاعلية التي يبني الناس عن طريقها علاقاتهم البينية، ويحافظون عليها. ويغطي مفهوم التهذيب سلوكات يُدلّل الناس من خلالها على أنهم يأخذون بالحسبان مشاعر الآخرين حيال الطريقة التي ينبغي أن يعامَلوا من خلالها (Kádár, 2017).

وفي نظريتهما آنفة الذكر يتحدث براون وليفينسون؛ عن شكلين من التهذيب: التهذيب الإيجابي، والتهذيب السلبي؛ ويتم التزام التهذيب الإيجابي حال كون المتفاعلين تجمعهما علاقة ألفة، وقربيين بعضهما من بعض؛ حيث ينطوي هذا الشكل من التهذيب على خيار أو توجه تضامني يهدف إلى تعزيز الوجه الإيجابي للمخاطَب من خلال استخدام صيغ مخاطبة حميمية؛ أو غير رسمية، كالاسم الأول، أو لفظ القرابة مثلًا، في محاولة للتأكيد على علاقة التقارب بين المخاطِب ومخاطَبه. في حين يكون الشكل السلبي من التهذيب مدفوعًا بحضور السلطة والمسافة، وذلك في أحوال تكون فيها الرسمية طاغية على المتفاعلين؛ حيث ينطوي هذا الشكل من التهذيب على التزام نوع من التحفظ والحذر؛ بوصفه وسيلة لتجنب الأفعال المحرجة، أيْ الأفعال التي تهدد "ماء الوجه" إما للمخاطَب أو للمخاطِب: كالطلب، والاعتذار، والإطراء. وذلك عن طريق تطبيق استراتيجية "التجنب" أو استخدام صيغ المخاطبة الرسمية الدالة على التكريم والألقاب (Brown & Levinson, 1987).

2. إشكالية الدراسة وتساؤلاتها:

يزخر النص القرآني بعدد كبير من صيغ المخاطبة على مستوى خطاب البشر للبشر، وتمثّل هذه الصيغ مادة خصبة للدراسة؛ فالمتأمل فيها يجد أنها متنوعة من حيث أشكالها اللغوية، وغاياتها التداولية، إلاّ أنها -على الرغم من ذلك- لم تحظ بالدرس الكافي الذي يجلّي ما تنطوي عليه في كثير من الحالات من قصدية الاختيار المتلائم مع ظروف الحوار وسياقاته. وتأتي هذه الدراسة بمقاربة جديدة لدراسة هذه الصيغ؛ حيث تركز على كيفية تلقي مفسري القرآن الكريم لهذه الصيغ وتوجيههم لدلالات استعمالها، وتطرح مجموعة من التساؤلات: ما المقاربة التأويلية التي اعتمدها المفسرون حيال هذه الصيغ؟، وهل تنبّهوا إلى اختلاف صيغة المخاطبة المستخدمة أحيانًا بحسب اختلاف السياق أو أحوال المتخاطبين؟ وهل استطاعوا أن يقرؤوا "الغايات التداولية" التي تقف وراء اختيار صيغة مخاطبة معينة دون غيرها؟

3. عينة الدراسة:

لقد حدّدت هذه الدراسة جملة من الشواهد القرآنية التي تضمنت صيغ مخاطبة على لسان البشر للبشر بوصفها عينة للدراسة؛ وقد بني اختيار هذه الشواهد دون غيرها على استقراء قام به الباحث لجميع الشواهد القرآنية التي تضمنت خطابًا من البشر إلى البشر، ثم جرى اختيار هذه العينة دون غيرها لما بدا فيها من استخدام صيغة مخاطبة ذات خصوصية تداولية. وقد تتبع الباحث آراء المفسرين في توجيه دلالة صيغ المخاطبة هذه من خلال مجموعة من كتب التفسير حرص الباحث على أن تكون متنوعة زمانًا ومنهجًا، وهذه التفاسير هي:

جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (ت 310 هـ).
النكت والعيون للماوردي (ت 450 هـ).
معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي (ت 510 هـ).
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (ت 538 هـ).
زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين ابن الجوزي (ت 597 هـ).
مفاتيح الغيب للفخر للرازي (ت 606 هـ).
أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت 685 هـ).
الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت 671 هـ).
مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (ت 710 هـ).
التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الغرناطي (ت 741 هـ).
البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (ت 745 هـ).
تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت 774 هـ)
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت 885 هـ).
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (ت 982 هـ).
فتح القدير للشوكاني (ت 1250 هـ).
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي (ت 1270 هـ).

محاسن التأويل للقاسمي (ت 1332 ه).
تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ت 1376 ه).
التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (ت 1393 ه).
صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني (1442).

4. منهج الدراسة وإجراءاتها:

اعتمد الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي. وقد استقصى أولًا صيغ المخاطبة التي وردت في القرآن الكريم على مستوى خطاب البشر للبشر، ثم فرز الصيغ التي بدت موظّفة توظيفًا تداوليًا، و اطلع على أقوال المفسرين حيال كلٍّ منها على حدة للوقوف على شكل المقاربة التأويلية التي اعتمدها المفسرون في التعاطي مع تلك الصيغ غير التقليدية، ثم تحليلها واستخلاص النتائج منها.

5. الدراسات السابقة:

تبدو الدراسات التي تركز على تحليل صيغ المخاطبة–على أهميتها- شحيحة في اللغة العربية قياسًا إلى الاهتمام الذي حظيت به هذه الظاهرة في اللغات الأخرى. وفيما يلي بعض الدراسات التي تناولت هذه الظاهرة عربيًا:

- دراسة بعنوان: "السياق المقامي وأهميته في تفسير صيغ المخاطبة في الخطاب النبوي" (سولونج ويوب، 2012) كرسها المؤلفان لدراسة تأثير سياق المقام في استخدام صيغ المخاطبة في الخطاب النبوي، وقد اقتصرا فيها على تحليل صيغ المخاطبة التي استخدمها النبي ﷺ في خطابه للناس وأثر السياق المقامي في توجيهها.
- أطروحة دكتوراه (باللغة الإنكليزية) بعنوان: " دراسة اجتماعية تداولية لصيغ المخاطبة وألفاظ الإحالة في اللغة العربية الفصحى كما وردت في سورة يوسف في القرآن الكريم (Alharbi, 2015). درست فيها الباحثة صيغ المخاطبة الضمائرية والاسمية في سورة يوسف في ضوء نظريات السلطة / التضامن، والألفة /المسافة، ونظرية التأدب.
-

6. نتائج الدراسة:

حدّد الباحث مجموعة من الأمثلة من آيات القرآن الكريم تضمنت مخاطبات من البشر للبشر، وقد اشتملت تلك المخاطبات ما بدا أنه صيغ مخاطبة غير تقليدية؛ أي أنها مختارة من قبل المخاطِب اختيارًا وظيفيًا لغايات تداولية؛ ثم استعرض الباحث أقوال المفسرين فيها، وآراءهم حيال اختلافها عن المعهود، واستنتاجاتهم بخصوصها إن وُجدت. وسيتم إيراد هذه الأمثلة مرتبة بحسب تسلسلها في القرآن الكريم:

المثال الأول:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
الحواريون	عيسى عليه السلام	يا عيسى بن مريم	المائدة 112

تطالعنا في الآية 112 من سورة المائدة صيغة مخاطبة غير تقليدية؛ حيث يخاطب الحواريون نبيهم عيسى عليه السلام بما يُتعارف عليه في عصرنا الراهن بـ"صيغة المخاطبة بالاسم الكامل full name form of address": ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. ورغم اختلاف هذه الصيغة عما ينقله القرآن الكريم من خطاب الأمم السابقة -بمن فيهم بنو إسرائيل- لأنبيائهم بالاسم الأول، إلّا أنّ هذه الصيغة لم تحظ باهتمام كبير من قبل غالبية المفسرين، والراجح أن ذلك بسبب أنّ تركيزهم إبّان تفسيرها انصب على توجيه دلالة سؤال الحواريين نبيهم عن استطاعة الربّ سبحانه وتعالى أن يُنزل عليهم مائدة من السماء؛ أهو تشكيك وعدم إيمان، أم رغبة بالتثبيت والاطمئنان؟ نجد ذلك عند: (الطبري، د. ت.: 11، 218-219؛ ابن كثير، 1999: 3، 225؛ القرطبي، 1964: 6، 364؛ الصابوني، 1997: 1، 245).

إلّا أنّ مفسرين آخرين -وإن كانوا قلّة- قد تنبهوا إلى الاحتمال الوظيفي الذي تنطوي عليه مخاطبة "الحواريين" لنبيهم باسمه الكامل: (يا عيسى بن مريم)؛ حيث يرى البقاعي في توجيهه لهذا العدول ميلًا من الحواريين عن مخاطبته -عليه السلام- بلقبه التكريمي (يا نبي الله، يا رسول الله، يا روح الله...) التي تعكس احترامًا وتوقيرًا، إلى صيغةٍ تُذكِّر بقلة تعظيم بني إسرائيل وتوقيرهم لأنبيائهم وكثرة تقلّبهم عليهم: "ذكر أنهم نادوه باسمه واسم أمه؛ فقالوا: ﴿يا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ﴾؛ ولم يقولوا: يا رسول الله، ولا يا روح الله، ونحو هذا من التبجيل، أو التعظيم. (1984: 6، 354-355).

أما أبو السعود فيميل في توجيهه لدلالة هذا العدول إلى أنها تعكس شكهم في صدق نبوة عيسى عليه السلام: "اختُلِف في أنهم هل كانوا مؤمنين أو لا؟ فقيل: كانوا كافرين شاكين في قدرة الله تعالى على ما ذكروا، وفي صدق عيسى عليه السلام، كاذبين في دعوى الإيمان والإخلاص. وقيل: كانوا مؤمنين، وسؤالهم للاطمئنان والتثبت، لا لإزاحة الشك". (العمادي، د. ت.: 3، 97).

وإذا سلّمنا بهذا الرأي؛ فربما يكون خطابهم له بصيغة تتضمن نسبته إلى أمه فيها إحالة إلى معجزة خلقه من أم بلا أب: أي هل يستطيع من خلقك من أم بلا أب أن ينزل علينا مائدة من السماء إنزالًا بلا سبب أرضي؛ كوجود الأدوات والطاهي..؟

وقد ذهب مفسرون آخرون إلى بعدٍ أعمق لتوجيه دلالة هذا العدول، كالذي نجده عند ابن عاشور الذي لمح البعد الوظيفي الذي ينطوي عليه اختيارهم لمخاطبته -عليه السلام- باسمه الكامل؛ حيث يرى أنه نابع من إدراكهم أنّ مِنْ شأن: " من يخاطِب من يتجشم منه كُلفة أن يطيل خطابه طلبًا لإقبال سمعه إليه ليكون أوعى للمقصود " (1984: 1، 105).

ولعلنا نقرأ هذا التوجيه قراءة أخرى – وإن كان ابن عاشور لم يشر إليها- وهي قراءة في ضوء نظرية التهذيب Politeness theory؛ إذ يبدو -إن سلمنا بما ذهب إليه ابن عاشور من أن عدولهم عن صيغة (يا نبي الله) أو (يا رسول الله) ليس تشكيكًا منهم بنبوته أو رسالته- أن وعيهم بالحرج الذي قد يولّده مثل هذا "الطلب" جعلهم يلجؤون إلى "التهذيب السلبي" بوصفه استراتيجية يلجأ إليها المخاطِب في الأحوال التي يكون فيها عُرضة للحرج؛ حيث ينطوي هذا الشكل من التهذيب على إظهار الحذر تجاه المخاطَب؛ بوصفه وسيلة لتجنب الأفعال المحرجة، أيْ الأفعال التي تهدد "ماء الوجه" إما للمخاطَب أو للمخاطِب: كالطلب، والاعتذار، والإطراء. وذلك -كما يؤكد بروان وليفينسون- عن طريق تطبيق استراتيجية "التجنب" أو استخدام صيغ المخاطبة الرسمية (Brown & Levinson, 1987).

المثال الثاني:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
يوسف عليه السلام	السجينان	يا صاحِبَيِ السجن	يوسف 39

في الآية 39 من سورة يوسف، يخاطب يوسف عليه السلام السجينَيْن اللذَين استفتياه بخصوص الرؤيا التي رأياها قائلًا: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾. وتبرز صيغة المخاطبة (يا صاحبي السجن) التي استعملها يوسف عليه السلام بوصفها صيغة موظّفة توظيفًا تداوليًّا؛ إذ إنها صيغة مختارة من بين عدد من الاحتمالات الممكنة من قبيل: ألا يستخدم صيغة مخاطبة أصلًا؛ فكما بدأ حواره معهما بلا صيغة مخاطبة ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا..﴾ كان من الممكن أن يستمر في الحوار دون استخدام صيغة مخاطبة، أو ربما كان ممكنًا اختيار صيغة أخرى من قبيل: (أيها السائلان)، (يا هذان). يضاف إلى ذلك أن الصيغة المختارة ليست تقليدية تقال في مثل هذا السياق، ما يدفع للاعتقاد أنها صيغة اختيرت اختيارًا وظيفيًا لغاية تداولية. وبالنظر في أقوال المفسرين في توجيه دلالة هذه الصيغة نجد أنهم على طائفتين:

الأولى، لم تلمح الجانب الوظيفي القصدي لصيغة المخاطبة، بل جعلتها من الصيغ العادية التي فرضها واقع الحال، ومن هذه الأقوال:

"جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، كما يقال لسكان الجنة: أصحاب الجنة، ولسكان النار: أصحاب النار". (البغوي، 1989: 4، 242).

"قوله تعالى: يا صاحبي السجن أي يا ساكني السجن. وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار". (القرطبي، 1964: 9، 192).

"(يا صاحبي السجن)، يعني: يا من هو في السجن، وجعلهما " صاحبيه " لكونهما فيه، كما قال الله تعالى لسكان الجنة: فَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وكذلك قال لأهل النار، وسماهم " أصحابها " لكونهم فيها". (الطبري، د. ت.: 16، 105).

"يا صاحِبَيِ السِّجْنِ. يريد يا صاحبيَّ في السجن، فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة [...] ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن، كقوله: أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ". (الزمخشري، 1987: 2، 471).

" قوله: ﴿ياصاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ يريد صاحبي في السجن، ويحتمل أيضا أنه لما حصلت مرافقتهما في السجن مدة قليلة أضيفا إليه، وإذا كانت المرافقة القليلة كافية في كونه صاحبا فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بأن يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب". (الرازي، 2000: 18، 457).

"جَعَلَهُما مُصاحِبَيْنِ لِلسِّجْنِ لِطُولِ مُقامِهِما فِيهِ، وقِيلَ المُرادُ: يا صاحِبَيَّ في السِّجْنِ، (الشوكاني، 1994: 3، 33).

"﴿ياصاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أي يا صاحبيَّ في السجن". (الصابوني، 1997: 2، 46).

والطائفة الثانية من المفسرين لمحت الجانب الوظيفي الذي ينطوي عليه اختيار صيغة المخاطبة هذه دون غيرها. وتراوحت هذه الآراء بين من رأى أنها مجرد صيغة خطاب لغير المعروف عُدل إليها تلطيفًا لصيغة (يا هذان)، أو هي صيغة أُريد منها التعبير عن حقيقة الصلة أو الرابطة التي باتت تجمع المخاطَب والمخاطِب بعد طول المُكث في مكان وظروف واحدة. نجد هذا التوجيه في تفسير ابن عاشور الذي يقول: "استئناف ابتدائي مُصَدّر بتوجيه الخطاب إلى الفتيين بطريق النداء المسترعي سمعَهما إلى ما يقوله للاهتمام به. وعبّر عنهما بوصف الصحبة في السجن دون اسميهما إمّا لجهل اسميهما عنده إذ كانا قد دخلا السجن معه في تلك الساعة [...]، وإما للإيذان بما حدث من [...] صلة المماثلة في الضرّاء [...]؛ فإن الموافقة في الأحوال صلة تقوم مقام صلة القرابة أو تفوقها". (1984: 12، 274).

لكنّنا نجد في تفاسير أخرى قراءة أعمق لدلالة التوظيف الذي انطوى عليه اختيار هذه الصيغة؛ حيث نرى أن عددًا من المفسرين رأوا أن الصيغة

قد اختيرت من قبل يوسف عليه السلام اختيارًا "وظيفيًا" غايته التأثير في مخاطَبَيْه من خلال تذكيرهم بالصحبة في ظروف قاسية تتولد عنها ألفة ومودة وتُمحّض فيها النصيحة، بغية حثهما على الإقرار بما سيدعوهم إليه من التوحيد:

"لمّا ذكرَ ما هو عليه من الدّين الحنيفي؛ تلطف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام؛ فناداهما باسم الصحبة في المكان الشاقّ الذي تخلص فيه المودة وتتمحض فيه النصيحة". (الأندلسي، 2000: 6، 278).

"ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجان، ودار الأحزان التي تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة؛ ليقبلا عليه ويقبلا مقالته" (العمادي، د. ت: 4، 278).

"فقال مناديًا لهما باسم الصحبة بالأداة التي تقال عند ما له وقع عظيم في النفوس في المكان الذي تخلص فيه المودة، وتمحض فيه النصيحة، وتصفّى فيه القلوب، ويتعمد الإخلاص رجاء الخلاص". (البقاعي، 1984: 10، 87).

"ولعل في ندائهما بذلك على هذا الوجه حثًا لهما على الإقرار بالحق كأنه قال لهما: يا ساكني هذا المكان الشاق والمحل الضنك إني ذاكر لكم أمرًا فقولوا: الحق فيه، ولا تزيغوا عن ذلك فأنتم تحت شدة ولا ينبغي لمن كان كذلك أن يزيغ عن الحق" (الألوسي، 1995: 6، 434).

" وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للمودة، وبذل النصيحة". (القاسمي، 1998: 6، 176-177).

ولعلنا نتفق مع ما ذهبت إليه هذه المجموعة من المفسرين؛ فنعتقد أن استخدام صيغة المخاطبة هذه من قبل يوسف عليه السلام هو توظيف تداولي لها غايته استمالة مخاطَبيه وتذليل السبيل أما قلبيهما لقبول دعوة التوحيد التي سيوجهها إليهم.

المثال الثالث:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
كفار قريش	النبي محمد ﷺ	يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر	الحجر 6

في الآية السادسة من سورة الحجر يرد خطابٌ موجّه من كفّار قريش إلى النبيّ محمد ﷺ: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾. وتعكس هذه الصيغة (يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر) بتركيبها غير التقليدي (أداة نداء + اسم موصول + فعل مبني للمجهول) غاية الاستخفاف بالمخاطَب، والتكذيب له -فداه أبي وأمي ونفسي-، كما تعكس بنيتها التركيبية قصدية واضحة تقف وراء اختيارها، بل صناعتها!. والحقيقة أن هذا لم يغب عن المفسرين؛ فيكاد المفسرون يُجمعون على أن صيغة المخاطبة هذه أريد بها الاستهزاء بالنبي ﷺ، والتقليل من شأنه، كما يتضح من الاقتباسات الآتية:

"قَالَهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ لِمُحَمَّدٍ ﷺ على وجهة الِاسْتِهْزَاء".(القرطبي، 1964: 10، 4).

"أيْ: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاءً وسخرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ إذ تظن أنّا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك". (السعدي، 2002: 428).

"﴿وَقَالُوا﴾ يعني: مشركي مكة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: القرآن، وأرادوا به محمدًا ﷺ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء". (البغوي، 1989: 3، 50).

"والنداء في ﴿يا أيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ للتشهير بالوصف المنادى به، واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكم، وقرينة التهكم قولهم ﴿إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، وقد أرادوا الاستهزاء بوصفه". (ابن عاشور، 1984: 14، 16).

"قال كفار قريش لمحمد ﷺ عَلى جهة الاستهزاء والتهكم: يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك" (الصابوني، 1997: 2، 98).

وقد ذكر الرازي رأيين: الأول يتفق فيه مع الرأي السابق من أن الغاية هي الاستهزاء. أما الثاني فيرى فيه أن قوله: ﴿ياأيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: " في زعمه واعتقاده، وعند أصحابه وأتباعه". (2000: 14، 16).

ويذكر البقاعي معنى لطيفًا يجمع فيه الرأيين في تحليل دلالي ونفسي مبني على تحليل لغوي، يقول: " ﴿وقالُوا﴾: أي: لم يجوزوا أنهم يودون ذلك؛ بل استمروا على العناد؛ وقالوا: ﴿يا أيُّها الَّذِي﴾؛ ولما كان تكذيبهم بالتنزيل نفسه؛ بنى للمفعول قوله: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾؛ أيْ: بِزَعْمِهِ؛ ﴿الذِّكْرُ﴾؛ وبينوا أنهم ما سمّوه تنزيلًا إلا تهكمًا؛ فقالوا - مؤكدين لمعرفتهم بأن قولهم منكر -: ﴿إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أي: بسبب ادعائك أن الله أنزل عليك ذكرًا؛ الذي تراه جِنّيٌّ يلقي إليك تخليطًا؛ فكان هذا دليلًا على عنادهم؛ فإنهم أقاموا الشتم مقام الجواب عما مضى؛ صنعة المغلوب المقطوع في المناظرة". (1984: 11، 19).

وسواء كانت غاية المخاطِبين الاستهزاء والسخرية، أو الاستهزاء والتكذيب والسخرية؛ إلاّ أنّ الذي لا شك فيه أنها صيغة معدولٌ إليها لغايات تداولية تهدف إلى التأثير في المخاطب وإحراجه من حيث كونها تجعل دعواه -صلى الله عليه وسلم- بأنه يُوحى إيه الذكر من ربّه، تجعها ضربًا من الجنون.

المثال الرابع:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
بنو إسرائيل	مريم عليها السلام	يا أخت هارون	مريم 28

تنقل لنا الآيتان 27 و28 من سورة مريم خطابًا موجهًا من بني إسرائيل لمريم عليها السلام: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾، وتتضمن الآيتان صيغتين من صيغ المخاطبة: الأولى بالاسم الأول (يا مريم)، والثانية بصيغة تتضمن نسبتَها إلى شخص يدعى هارون بوصفه أخًا لها: (يا أختَ هارون). وقد وردت الآيتان الكريمتان في سياق دهشة واستنكار بني إسرائيل لمجيء مريم عليها السلام "البتول" التي لم تتزوج تحمل طفلًا وليدًا!!!

وقد ذكرت كتب التفسير آراءً عديدة حول توجيه دلالة صيغة المخاطبة (يا أخت هارون)؛ وقد اختلفت هذه الآراء في تحديد شخصية "هارون" الذي نسبت إليه مريم عليها السلام في صيغة المخاطبة، ويمكن إيجاز هذه الآراء في النقاط التالية: (البغوي، 1989: 3، 231؛ القرطبي، 1964: 11، 100؛ الطبري، د. ت: 18، 186؛ ابن عاشور، 1984: 16، 95؛ البقاعي، 1984: 12، 192؛ البيضاوي، 1998: 4، 9؛ الصابوني، 1997: 2، 197).

- أن هارون هو النبي هارون عليه السلام، وقد نُسبت إليه لشبهها به في العبادة.
- أنه أخ لها حقيقي، فنسبوها إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء.
- نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس به في العبادة، والزهد.
- أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم. يقال له هارون.

ورغم تنوع هذه الآراء حول شخصية هارون المشار إليه؛ إلّا أنّ المفسرين في توجيههم لدلالة استعمال هذه الصيغة والعدول عن الصيغة التقليدية (يا مريم)، استطاعوا أن يلمحوا فيها اختيارًا وظيفيًا غايته توجيه رسالة ضمنية لمخاطَبَهم (مريم عليها السلام)؛ حيث تحمل هذه الإشارة إلى شخصية (هارون) -أيًا كان- توبيخًا لها على ما ظنّوه فعلًا لا يليق بامرأة في مقامها.

المثال الخامس:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
موسى عليه السلام	أخوه هارون عليه السلام	يا هارون	طه 92
هارون عليه السلام	أخوه موسى عليه السلام	يا بن أمّ	طه 94

يطالعنا في الآيات 92-94 من سورة طه موقف تحاوري بين موسى عليه السلام الغاضب من رؤية قومه قد نكصوا إلى كفرهم متخذين إلهًا "عجلًا جسدًا له خُوار" عقب غيابه عنهم للقاء ربّه، وبين أخيه هارون عليه السلام المتوسّل لأخيه الغاضب ألا يبطش به: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا 92 أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي 93 قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي94﴾.

ونلاحظ أنّ كلًا من الشقيقين استخدم صيغة مخاطبة مختلفة؛ فموسى عليه السلام خاطب أخاه هارون عليه السلام باسمه الأول (يا هارون)، ولم تعلّق كتب التفسير على استخدام هذه الصيغة من قبل موسى عليه السلام، ربما لأنها تبدو صيغة معتادة. إلّا أننا نرى -رغم ذلك- أنها يمكن أنْ تكون ذات دلالة تداولية؛ إذ إنها تعكس حال الغضب عند موسى عليه السلام التي جعلته يختار الصيغة القياسية (الاسم الأول) دون صيغة التودد (يا أخي). فالمقام هنا ليس مقام تودد وليس مقام "ألفة"؛ فأراد أن يضع "مسافة" ويستبعد "الألفة".

أما الصيغة التي اختارها هارون عليه السلام في جواب أخيه موسى عليه السلام (يا بن أمّ) فقد حظيت باهتمام المفسرين الذين أجمعوا على أنها ليست مستخدمة على حقيقتها، بل موظّفة توظيفًا "تداوليًا" غايته التأثير في مآلات الحوار من خلال استعطاف المخاطَب موسى عليه السلام وترقيق قلبه "بذكر الأم لأنّ ذكرها أرقُّ وأبلغ في مقام الاستشفاع ". كما في الأمثلة الآتية:

"ترفّقَ له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ ". (ابن كثير، 1999: 5، 312).

"ونسبَه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور استعطافًا له وترقيقًا لقلبه". (الشوكاني، 1994: 3، 452).

"﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾ ترقيق له، وإلا فهو شقيقه" (السعدي، 2002: 512).

"﴿قالَ يا ابْنَ أُمَّ﴾ خص الأم بالإضافة استعطافًا وترقيقًا لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه؛ فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين". (الألوسي، 1995: 8، 561).

"﴿يا ابْنَ أُمَّ﴾ فذكّره بها خاصة، وإن كان شقيقه، لأنه يسوءها ما يسوءه، وهي أرق من الأب". (البقاعي، 1984: 12، 334).

"وقوله في الجواب: ﴿يا ابْنَ أُمَّ﴾ نداء لقصد الترقيق والاستشفاع". (ابن عاشور، 1984: 16، 292).

"خص الأم استعطافًا وترقيقًا، وقيل لأنه كان أخاه من الأم، والجمهور على أنهما كانا من أب وأم". (البيضاوي، 1998: 2، 37).

"﴿قالَ يا ابْنَ أُمَّ﴾ [...] وكان لأبيه وأمه عند الجمهور، ولكنه ذكر الأم استعطافًا وترقيقًا". (النسفي، 1998: 2، 380).

"قال له هارون استعطافًا وترقيقًا: يا بن أمي - أي يا أخي". (الصابوني، 1997: 2، 224).

ويمكن أن ننظر إلى هذا المثال في ضوء نظرية التهذيب؛ حيث يبدو الموقف الذي اتخذه هارون عليه السلام مثالًا واضحًا من أمثلة التهذيب الإيجابي؛

إذ يسعى المخاطِب هارون عليه السلام إلى التأثير في مآلات الحوار من خلال استخدام صيغة مخاطبة حميمية ذات بعد تضامني.

المثال السادس:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
قوم فرعون	موسى عليه السلام	يا أيها الساحر	الزخرف 49

تُمثّل صيغة المخاطبة بالاسم الأول (يا موسى) الصيغة القياسية التي اعتاد قوم فرعون، بل فرعون نفسه أن يخاطبوا بها موسى عليه السلام، شأنهم في ذلك شأن خطاب أقوام الأنبياء جميعًا لأنبيائهم. بينما وردت صيغة المخاطبة (يا أيها الساحر) مرة واحدة على لسان أتباع فرعون في خطابهم لموسى عليه السلام حين وقع بهم العذاب: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف 49]

وقد تراوحت آراء المفسرين في توجيه دلالة هذا العدول إلى صيغة (أيها الساحر) بدلًا من الصيغة الافتراضية (يا موسى) بين عدة آراء:

الأول: أنّ الشدّة التي وقعوا فيها جعلت ألسنتهم تزلق بما اعتادوا أن ينادوه به وهم يكذبونه. (القرطبي، 1964: 16، 97؛ ابن الجوزي، 2002: 4، 80؛ الماوردي، د. ت: 5، 229).

الثاني: أنه عدول يراد به التعظيم والتزلّف لأن السحر لم يكن عندهم مذمومًا، بل على العكس؛ فقد كان الساحر عندهم بمعنى العالم. (الطبري، د. ت: 12، 515؛ ابن كثير، 1999: 7، 230؛ القرطبي، 1964: 16، 97؛ البغوي، 1989: 4، 164؛ الرازي، 2000، 27: 537؛ البيضاوي، 1998: 5، 92؛ الصابوني، 1997: 3، 149).

الثالث: أنهم قالوه على سبيل الاستهزاء، وهو ما يعكس شدة شكيمتهم وفرط حماقتهم؛ إذ يجعلون المقام مقام استهزاء وهم في أشد الحاجة إليه للتخلص مما حل بهم من الشدة والبلاء. (ابن الجوزي، 2002: 4، 80؛ الماوردي، د. ت: 5، 229).

الرابع: أنهم قالوه إقرارًا منهم بأنه غلبهم؛ فيصير المعنى: أيها الغالبُ بسحره. (القرطبي، 1964: 16، 97؛ الماوردي، د. ت: 5 229).

ومهما يكن من أمر فإننا لو استبعدنا الرأي الأول؛ فإن جميع التوجيهات الأخرى تعكس إدراكًا من المفسرين بحقيقة أن العدول إلى هذه الصيغة عدول وظيفي مقصودٌ له غايات تداولية هدفها التأثير في سيرورة الموقف التخاطبي سواء أكان الأمر يتعلق بتملقه وحثه على الاستجابة؛ إذا ما ذهبنا مع الرأي الذي جعل استخدام صفة الساحر أمرًا إيجابيًا يراد به التعظيم، أو كان الأمر يتعلق بالاستهزاء به من طرف خفي، كما ذهب إلى ذلك الرأي الثاني الذي جعله نتاج وقاحتهم وشدة شكيمتهم وعدم رغبتهم بتصديق نبوته ولو على سبيل المهادنة، وكسب الود الوقتي.

المثال السابع:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
فرعون	قومه	يا قوم	الزخرف 51

تضمنت الآية 51 من سورة الزخرف خطابًا من فرعون لأتباعه: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾. ولم يلتفت المفسرون إلى ما في هذه الصيغة من عدول عن الصيغة المعهودة التي ينقلها القرآن الكريم في مواضع عديدة، التي يستعمل فيها فرعون صيغة (أيها الملأ)، لخطاب من حوله؛ فمعظم تأويلاتهم تركّزت على أمرين: الأول، تفسير كلمة قوم؛ أي هل المقصود بها جميع القبط، أم المقصود ممثلوهم من عظماء القبط الذين في حاشيته. والثاني تفسير مدلول المناداة في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾؛ هل نادى جميع القبط، أم أرسل من ينادي في الشوارع والأسواق، أم كانت المناداة لعظمائهم وكبرائهم الذين في حاشيته. نجد هذا عند: (الطبري، د.ت: 21، 616؛ القرطبي، 1964: 16، 98؛ الألوسي، 1995: 13، 88؛ أبو حيّان، 2000: 9، 381).

لكن صاحب نظم الدرر يلتقط الجانب الوظيفي المتضمَّن في اختيار هذه الصيغة؛ إذ يقول: " ولما كان كأنه قيل: لم نادى؟ أجاب بقوله: ﴿قالَ﴾ أي خوفًا من إيمان القبط لما رأى من أن ما شاهدوا من باهر الآيات [...] يزلزل ويأخذ بالقلوب: ﴿يا قَوْمِ﴾ مستعطفًا لهم بإعلامهم بأنهم لحمة واحدة، ومستنهضًا بوصفهم بأنهم ذوو قوة على ما يحاولونه" (البقاعي، 1984: 17، 445).

ولعلّنا نتفق مع البقاعي في هذا التوجيه، ونرى في اختيار فرعون لصيغة الخطاب هذه ختيارًا وظيفيًا غايته التأثير في المخاطبين بتذكيرهم بالرابطة العرقية التي تربطهم به، وباختلافهم العرقي عن موسى الذي حقق تفوقًا واضحًا عقب ابتلاء الله قوم فرعون بالآيات التسع، ثم التجائهم وتضرعهم إليه ليكشف عنهم ذلك العذاب مع وعود بأنهم سيؤمنون ويرسلون معه بني إسرائيل؛ فيبدو أن موقف فرعون كان ضعيفًا للغاية في هذه الحالة؛ فلجأ إلى سلاح التصنيف العِرقي، وكأنه يخاطب بني جلدته لتذكيرهم بارتباطهم المصيري به.

المثال الثامن:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
المنافقون	ساكنو المدينة المنورة	يا أهل يثرب	الأحزاب 13

تتضمن الآية 13 من سورة الأحزاب خطابًا من المنافقين لأهل المدينة النبوية الشريفة بصيغة (يا أهل يثرب) داعين إياهم إلى التخاذل عن رسول الله ﷺ وهو في أحلك ظروف حصار المشركين له ولأصحابه إبّان غزوة الخندق: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾. ولم تلفت صيغة المخاطبة هذه انتباه كثير من المفسرين الذين اكتفوا بتوضيح أن يثرب هي المدينة، مع تأصيل لاشتقاق الاسم كما عند: (الطبري، د. ت: 20، 224؛ ابن كثير، 1999: 6، 389؛ الشوكاني، 1994: 4، 306؛ الصابوني، 1997: 2، 473).

إلّا أنّ قسمًا من المفسرين التفتوا إلى الاستعمال الوظيفي لهذه الصيغة؛ فتراوحت تأويلاتهم بين عدّة آراء:

"﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يريدون ﴿يا أهل المدينة﴾ فنادوهم باسم الوطن [...] إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر". (السعدي، 2002: 660).

"كأن القائلين اختاروا يثرب من بين الأسماء مخالفة له صلى الله تعالى عليه وسلم، لما علموا من كراهيته عليه الصلاة والسلام لهذا الاسم من بينها". (الألوسي، 1995: 11، 157).

"﴿يا أهْلَ يَثْرِبَ﴾ عدلوا عن الاسم الذي وسمها به النبي ﷺ من المدينة وطيبة -مع حسنه- إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديمًا مع احتمال قبحه باشتقاقه من الثرب الذي هو اللوم والتعنيف إظهارًا للعدول عن الإسلام". (البقاعي، 1984: 15، 306).

"﴿يا أهْلَ يَثْرِبَ﴾ هو اسم المدينة المطهرة، وقيل: اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها، وقد نهى النبي ﷺ أن تسمى بها كراهة لها، وكأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له ﷺ، [...] ﴿فارْجِعُوا﴾ أي: إلى منازلكم بالمدينة، فمرادهم الأمر بالفرار، لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجًا لمقالهم، وإيذانًا بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم. وقيل: المعنى لا قيام لكم في دين محمد ﷺ، فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك، أو: فارجعوا عما بايعتموه عليه، وأسلموه إلى أعدائه. أو: لا مقام لكم في يثرب، فارجعوا كفارًا ليتسنى لكم المقام بها، والأول هو الأنسب لما بعده". (العمادي، د. ت: 6، 94).

ورغم تباين آراء هذا القسم من المفسرين في توجيه دلالة هذا العدول؛ إلّا أنهم مجمعون على أمرين: الأول أنه عدول عن الصيغة الافتراضية (يا أهل المدينة)، والثاني أنه اختيار "وظيفيّ لغايات تداولية".

المثال التاسع:

المخاطِب	المخاطَب	صيغة المخاطبة	السورة والآية
عيسى عليه السلام	بنو إسرائيل	يا بني إسرائيل	المائدة 72
عيسى عليه السلام	بنو إسرائيل	يا بني إسرائيل	الصَّف 6

تعد الصيغة التي استعملها عيسى عليه السلام في مخاطبة بني إسرائيل لافتة للنظر لما فيها من العدول عن الصيغة التي وردت على لسان جميع الرسل: (يا قوم)، إلا على لسان عيسى عليه السلام الذي عدل عنها إلى صيغة: (يا بني إسرائيل). وقد وردت هذه الصيغة على لسان عيسى عليه السلام في موضعين:

الأول: في الآية 72 من سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، ولم نجد في كتب التفسير تعليقًا على استعمال هذه الصيغة بدل صيغة (يا قوم) في هذه الآية.

أما الآية الثانية؛ فقد وردت في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف 6]

وقد حظيت صيغة المخاطبة التي استعملها عيسى عليه السلام في هذه الآية باهتمام المفسرين؛ فقد تطرق معظمهم حين تفسيرها إلى دلالة عدوله عليه السلام عن صيغة (يا قوم) إلى صيغة (يا بني إسرائيل)، ويجمع المفسرون في توجيههم لدلالة هذا العدول على سبب واحد: هو أنه عليه السلام لا نسب له فيهم من جهة أنه بلا أب، وإن كانت أمه منهم؛ لذا فليسوا قومه على الحقيقة:

"وقال: يا بني إسرائيل ولم يقل يا قوم كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه". (القرطبي، 1964: 18، 83).

"ولم يعبر بالقوم كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا أب له فيهم [و] إن كانت أمه منهم، فإن النسب إنما هو من جهة الأب". (البقاعي، 1984: 20، 12-13).

"قيل: إنما قال: يا بنى إسرائيل، ولم يقل: يا قوم كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قوم". (الزمخشري، 1987: 4، 525).

"ولعله لم يقل يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم". (البيضاوي، 1998: 5، 208).

"ولم يقل: يا قوم، كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه". (النسفي، 1998: 3، 475).

وتميزًا عن جمهور المفسرين نلمح عند الألوسي بعدًا إضافيًا لتوجيه دلالة هذه الصيغة؛ حيث يقرأ فيها توظيفًا "تداوليًا" يرمي إلى استعطاف قلوبهم

بتذكيرهم بما يفخرون به من نسبهم، بأنه مثلهم من قوم موسى:

"ولعله عليه السلام لم يقل يا قوم كما قال موسى عليه السلام بل قال: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ لأنه ليس له النسب المعتاد وهو ما كان من قِبل الأب فيهم، أو إشارة إلى أنه عاملٌ بالتوراة، وأنه مثلهم في أنه من قوم موسى عليه السلام هضمًا لنفسه بأنه لا أتباع له ولا قوم، وفيه من الاستعطاف ما فيه، وقيل: إن الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التعظيم، وقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل عليه السلام". (1995: 14، 280).

إلا أننا نجرؤ أن نضيف ملمحًا آخر من ملامح دلالة العدول عن صيغة يا قوم إلى صيغة يا بني إسرائيل؛ إذ نعزوه إلى مقاربة "التهذيب السلبي"؛ حيث نفترض أن عيسى عليه السلام عدل عن صيغة (يا قوم) دفعًا للحرج لإدراكه أصلًا ما يكنّه مخاطبوه من التشكيك في نسبه، وعدم عدّه فردًا منتميًا إليهم.

الخاتمة

سعى هذا البحث إلى دراسة اتجاهات علماء التفسير في توجيههم لدلالة صيغ مخاطبة البشر للبشر في القرآن الكريم من خلال بعض الأمثلة التي بدا فيها استخدام صيغ المخاطبة غير تقليدي، ومقصود؛ في محاولة لتجلية ملامح المقاربة التداولية في توجيههم لدلالة اختيار صيغ المخاطبة تلك. وقد اختار البحث مجموعة من كتب التفسير من عصور متعددة ومناهج مختلفة، وتتَبّع الآراء التي تبناها المفسرون في توجيههم لدلالة اختيار صيغة المخاطبة المستخدمة من قبل المتحاورين في تلك الشواهد عينة الدراسة دون غيرها من صيغ المخاطبة الممكنة؛ في ضوء المقاربات التداولية. وقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

- التفتت كتب التفسير المعتمدة في الدراسة -في معظم الحالات- إلى حقيقة وجود عُدول عن صيغة المخاطبة الأصلية إلى صيغة مخاطبة أخرى غير تقليدية من قبل أحد المتحاورين، أو كلهما.
- تعددت آراء المفسرين في توجيههم لأسباب هذا العدول، وغاياته.
- فبعض كتب التفسير عكست رؤى تفسيرية لم تلمح الجانب الوظيفي في هذا العدول.
- بينما لمحت بعض كتب التفسير إبّان توجيهها لدلالة ذلك العدول -في كثير من الحالات- الجانب الوظيفي لاختيار صيغة المخاطبة، وقدمتْ استنتاجات تتساوق مع المقاربات التداولية الحديثة؛ إذ لمحت الجانب الوظيفي في ذلك العدول عن صيغة مخاطبة إلى أخرى، ورأت فيه اختيارًا "تداوليًا" من قِبل المتحاورين يرمي إلى توظيف صيغة المخاطبة المختارة في التأثير في مآلات الحوار.

المصادر والمراجع

الألوسي، ش. (1995). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.

الأندلسي، أ. (2000). *البحر المحيط في التفسير*. بيروت: دار الفكر.

البغوي، ا. (1989). *معالم التنزيل في تفسير القرآن*. (ط1). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

البقاعي، إ. (1984). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

البيضاوي، ن. (1998). *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*.(ط1). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن الجوزي، ج. (2002). *زاد المسير في علم التفسير*. (ط1). بيروت: دار الكتاب العربي.

الرازي، م. (2000). *مفاتيح الغيب*. (ط3). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الزمخشري، م. (1987). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*. (ط3). بيروت: دار الكتاب العربي.

السعدي، ع. (2002). *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. (ط1). بيروت: مؤسسة الرسالة.

سولونج، و.، ويوب، ش. (2012). السياق المقامي وأهميته في تفسير صيغ المخاطبة في الخطاب النبوي. *مجلة مجمع اللغة العربية الأردني*، (82)، 145-178.

الشوكاني، م. (1994). *فتح القدير*. (ط1). دمشق، بيروت: دار الكلم الطيب.

الصابوني، م. (1997). *صفوة التفاسير*. (ط1). القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع.

الطبري، م. (د. ت.). *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. مكة المكرمة: دار التربية والتراث.

ابن عاشور، م. (1984). *تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد*. تونس: الدار التونسية للنشر.

العمادي، أ. (د. ت.). *إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الغرناطي، م. (1996). *التسهيل لغلوم التنزيل*. (ط1). بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.

القاسمي، م. (1998). *محاسن التأويل*. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.
القرطبي، م. (1964). *الجامع لأحكام القرآن*. (ط2). القاهرة: دار الكتب المصرية.
ابن كثير، إ. (1999). *تفسير القرآن العظيم*. (ط2). الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع.
الماوردي، ع. (د. ت.). *النكت والعيون*. بيروت: دار الكتب العلمية.
النَّسفي، أ. (1998). *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*. (ط1). بيروت: دار الكلم الطيب.

REFERENCES

Al-Alūsī, Š. (1995). *Rūḥ al-Maʿānī fi Tafsīr al-Qurʾān al--ʿaẓīm wa as-Sabʿ al-Maṯānī*. Bayrūt: Dār al-Kutub al-ʿilmiyyah.

Al-ʾandalusī, A. H. (2000). *Al-Baḥr al-Muḥīṭ fi at-Tafsīr.* Bayrūt: Dār al-Fikr.

Al-Baġawi, A. (1989). *Ma'ālim Al-Tanzīl fi tafsīr al-Qur'ān*. Bayrūt: Dar Ihiā' at-Turaṯ.

Al-Bayḍāwī, N. (1998). *Anwār at-Tanzīl wa Asrār at-Taʾwīl*. Bayrūt: Dār Iḥyāʾ at-Turāṯ al-ʿarabī.

Bin ʿāšūr, Ṭ. (1984). *Taḥrīr al-Maʿnā as-Sadīd wa Tanwīr al-ʿaql al-Jadīd min Tafsīr al-Kitāb al-Majīd*. Tūnus: ad-Dār at-Tūnusiyyah lin-Našr.

Al-Biqāʿī, I. (1984). *Naẓm ad-Durar fi Tanāsub al-Āyāt wa as-Suwar*. Al-Qāhirah: Dar al-Kitāb al-Islāmī.

Brown, R., & Ford, M. (1961). Address in American English. *Journal of Abnormal and Social Psychology*, 62, 375-385.

Brown, R., & Gilman, A. (2012). The pronouns of power and solidarity. In *Readings in the Sociology of Language* (pp. 252-275). De Gruyter Mouton. https://doi.org/10.1515/9783110805376.252

Brown, P., & Levinson, S. C. (1987). *Politeness: Some universals in language usage*. Cambridge: Cambridge University Press.

Culpeper, J. (2011). 13. Politeness and impoliteness. *Pragmatics of society*, *5*, 393.

Dubois, J. (1994). Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage. *(No Title)*.

Fasold, R. (1990). *Sociolinguistics of Language*. Cambridge: Basil Blackwell Inc.

Grice, H. P. (1975). *Logic and Conversation*. In *Syntax and Semantics*. Leiden: Brill.

Al-Ġirnāṭī, I. J. (1996). *At-Tashīl li ʿulūm at-Tanzīl*. Bayrūt: Dar al-Arqam ibn al-ʾarqam.

Alharbi, T. A. A. (2015). *A Socio-Pragmatic study of forms of address and terms of reference in Classical Arabic as represented in the Chapter of Joseph in the Holy Quran* (Doctoral dissertation, University of Leeds). https://etheses.whiterose.ac.uk/11127/

Holmes, J. (2013). *An Introduction to Sociolinguistics*. (4th ed.). UK: Routledge

House, J. (1998). Politeness and translation. In *The pragmatics of translation* (pp. 54-71).

Al-ʿimādī, A. S. (n. d.). *Iršād al-ʿaql al-slīm ilā mzāyā al-kitāb al-karīm*. Bayrūt: Dār iḥīāʾ al-turāṯ al-ʿarabī.

Ibn al-Jawzī, J. (2002). *Zād al-Masīr fi ʿilm at-Tafsīr*. Bayrūt: Dār al-Kitab al-ʿarabī.

Kádár, D. Z. (2017). Politeness in pragmatics. In *Oxford Research Encyclopedia of Linguistics*. https://doi.org/10.1093/acrefore/9780199384655.013.218

Ibn Kaṯīr, I. (1999). *Tafsīr al-Qurʿān al-ʿaẓīm*. (2nd ed.). ar-Riyaḍ: Dar Taiba lin-Našr wat-Tawzīʿ.

Lakoff, R. T. (1990). *Talking power: The politics of language in our lives*. New York: Basic Books.

Al-Mawardī, ʿA. (n. d.). *An-nukat wa al-ʿuyūn*. Bayrūt: Dār al-Kutub al-ʿilmiyyah.

An-Nasafi, A. (1998). *Madarik at-Tanzil wa Ḥaqāiq at-Ta'wīl*. (1st ed.). Bayrūt: Dar al-kalim aṭ-Ṭayyib.

Philipsen, G., & Huspek, M. (1985). A Bibliography of Sociolinguistic Studies of Personal Address. *Anthropological Linguistics*, 27(1), 94–101. http://www.jstor.org/stable/30027934

Al-Qāsimī, M. (1998). *Maḥāsin at-Taʾwīl*. Bayrūt: Dār al-Kutub al-ʿilmiyyah.

Al-Qurṭubi, M. (1964). *Al-jamiʿ liaḥkam al-Qur'ān*. (2nd ed.). al-Qāhirah: Dār al-Kutub al-Misriyyah .

Ar-RāZī, M. (2000). *Mafātīḥ al-ġayb*. (3rd ed.). Bayrūt: Dār iḥīāʾ al-turāṯ al-ʿarabī.

As-Sābūnī, M. (1997). *Ṣafwat a-Tafāsīr*. (1st ed.). Al-Qāhirah: Dār aṣ-Ṣābūnī liṭṭibāʾah wannašr wattawzīʿ.

As-Saʿdī, ʿA. (2002). *Taysīr al-Karīm ar-Raḥmān fi Tafsīr Kalām al-Mannān*. (1st ed.). Bayrūt: Muʾassasat ar-Risālah.

Solonj, W., & Yop, S. (2012). As-Siyaq al-Maqāmī wa Ahammiyatuhu fi Tafsīr Ṣiyaġ al-Muḫaṭaba fi al-Ḫiṭāb an-Nabawī. *Majallat Majmaʿ al-Luġah al-ʿarabiyyah al-Urdunī*, (82), 145-178. https://arabic.jo/ojs/index.php/JJaa/article/view/569

Aš-Šawkanī, M. (1994). *Fatḥ al-Qadīr*. (1st ed.). Bayrūt: Dar Ibn Kaṯīr.

al-Ṭabarī, M. (n. d.). *Jāmiʿ al-Bayān ʿan taʾwīl āī al-Qurʾān*. Makkah al-Mukarramah: Dār at-Tarbiyah wat-Turāṯ.

Wardhaugh, R. (2015). *An Introduction to Sociolinguistics*. (7th ed.). Oxford: Blackwell Publishing.

Az-Zamaẖšarī, M. (1987). *Al-Kaššāāf ʿan ḥaqāʾiq ġawāmiḍ at-tanzīl*. (3rd ed.). Bayrūt: Dār al-kitāb al-ʿarabī.

Zavitri, I., Machmoed, H., & Sukmawaty, S. (2018). The Adress Terms in English and SELAYERESE Selayerese: A Sociolinguistic Perspective. *Journal Ilmu Budaya*, 6(1), 129-134. https://journal.unhas.ac.id/index.php/jib/article/view/4317/2455